منابع النيل

حسب عقيدة قدماء المصريين وتقاليدهم

لأنطون زكري

٢ — خطاب أحد رؤساء كهنة قدماء المصريين

الى بوليوس قيصر الروماني بشأن منابع النيل

من المعلوم أن حقوق الاستعمار تحتم على القائمين به البحث في الأقاليم التي يحتلونها عن منابع ثروتها ، ومصادر رغدها ، وأساليب مجدها ، ليتخذوا لهم في هذه المصادر سطوة فعالة لتخضع النفوس الى ارادتهم ، بدون أن يتجشموا في هذا الاخضاع معاناة شاقة ، لأن الاستعانة بما يعد من ضروريات الطبيعة في ترويج الاستعمار من ضروب السياسة التي يتفنن فيها مهرتهم لاجتذاب الشعوب وتسخيرهم . وعلى هذا المبدأ افتكر الرومان أن يتخذوا أساليب الاستعمار المتادة مع الكهنة البارعين في عصر قدماء المصريين ، وابتدأوا يخابرونهم عن مصادر النيل وينابيعه ليستدرجوهم بعد ذلك الى سيرورتهم في قبضتهم ، ويبوحوا لهم بطريق الدهاء وأساليب السياسة عما استأثروا به علماً حتى يتوصلوا بذلك الى السلطة الفعلية في هيئة الأعمال وتسخير الظروف الى ما يشاءون .

وقد جاء في أنشودة النيل ما يشير الى أنه بطبيعته فيض سخاوي ، يحيي به الله الأرض بعد موتها ، وأن ارتسام هذا المعنى في خيالات الكهنة مكنتهم من اختراع الروايات والأقاصيص ليحفظوا لأنفسهم مركز الاختصاص بالمعلومات الدقيقة ، وليخلدوا لهيمنتهم على الشعب صفة أدبية أبدية .

وقد روى الكهنة للمؤرخ اليوناني هيرودوت في القرن الخامس ق. م . وبوليوس قيصر الروماني في القرن الأول ق. م. أقاصيص نظمها الشاعر الروماني ليكين (Lucain) باللاتينية ، وسردها بأسلوب خطاب بعثه رئيس كهنة قدماء المصريين الى بوليوس قيصر الروماني بشأن هذه الينابيع ، وأعتقد أني أول من وفق الى ترجمته الى اللغة العربية ، واليك مغزاه بالاختصار :

« أخطأ الاقدمون في تعبيرهم بأن النيل يزداد فيضانه عقب ذوبان الثلوج في جبال »
« أثيوبيا ، لان سكان تلك الجهة من حرارة الشمس تبدو جلودهم سمراء كما أخطأ »
« الزاعمون بأن منابع الانهار المتكونة من ثلوج يذيبها الحر وتزداد في أوائل فصل »
« الخريف لان النيل لا تبتدىء زيادته قبل أن ترسل نجمة الشعرى اليمانية الى الافق »
« وقبل أن يتساوى في ميزان الافلاك زمن الليل والنهار »

« فنواميس النيل ليست كنواميس بقية الانهر ، ولم يزدد فيضانه في الشتاء »
« فبعد ابتعاد الشمس عن درجات المقارنة الافقية لها في فصل الصيف تتدفق المياه »
« بغتة تعويضه عن ذلك ، وقد اختص النيل بلطافة حالة الجو ، فهو يفيض في منتصف »
« الصيف حينما تكون منطقة الارض الحارة ، مائعة من الحيلولة بتأثير القيظ ، فيأتي »
« النيل مساعداً للعالم في أرجاء واديه ، وقد يتجه أمام وجه برج الاسد المتأجج »
« بالحرارة ، ويبادر بلدة « سين » (اسوان) المحترقة ببروج السرطان ، فلا ترتفع »
« مياهه قبل نزول الشمس في الخريف ، ويتسع الظل في بلدة « مروي » (وهي بقرب »
« (شندي) عاصمة المملكة المصرية بالسودان) فلن يستطاع بيان السبب لسعة فيضك »
« وأدواره أيها النيل ، لان القدرة الالهية هي التي نظمته بقدر حاجة العالم اليك » .

« أخطأ القدماء أيضاً في نسبتهم زيادة الفيضان الى هبوب الرياح في وقت طويل »
« تكون الامطار فيه مضطرة أن تجود بقطراتها على هذا النهر ، وتدفعه بلا انقطاع »
« الى المنافذ الكبيرة التي تسيل على شواطىء البحر الاحمر ، ولوجود حواجز أمامه تعوق »
« سرعة انحداره ، ويتدفق في الجداول والجهات التي تستفيد مزارعها وحقولها لوصول »
« فيوضه اليها ، ومن الخطأ أيضاً التصديق بأقوال من زعموا أن فيض النيل ناتج عن »
« قنوات سارة تحت الارض ، أو ثقوب مفتحة الافواه في حفر واسعة تنحدر اليها المياه »
« في مسافات عميقة آتية من الجهات الباردة في القطب الاكبر وسط قطب الدنيا ، وإن »
« حرارة الشمس ، حين تضعف عند بلدة (مروي) تجلب مياهها ، وتجذب النهرين »
« (الكاهل والابيض) بمسالك خفية يقذف عندها النيل بدفقاته الى هذه الانهار في »
« منبع واحد ، ولكنها لا تستطيع السريان في هوته ، « فيدمج الارض حين يغمرها » »
« وينتزع من بعض طبقاتها الاملاح الكائنة في مدى مجراه »

« وظن البعض أن الشمس والهواء يجتذبان الماء من المحيط ، وحين تصل الشمس الى »
« المنطقة الحارة أمام برج السرطان ينشق المحيط ، ويمتص مياهاً غزيرة من الجو ، »
« وهذه الزيادة تنقلها الاعاصير الى النيل »

« أرجوك أيها القيصر أن تسمح لي بأن أشرح لك تحليلات هذه المسألة العويصة فأقول: »

(رقم ٨) رسم الاسكندر المقدوني
نقلاً من كتاب Ebers Aegypten

« إن مياه النيل منذ بدء الخليقة تتسرب من عروق في الأرض ، أوجدها الله »
« لتكون مجراه الطبيعي ، تسيره القدرة الإلهية بأنظمة وقوانين فوق قدرة أمثالنا »

« وأمثالكم أتريد ياروماني معرفة منابع النيل ، وقد اهتم قبلك بالبحث في موضوعها »
« الملوك المصريون الجبابرة والفرس والبطالسة منذ أجيال ، ولم يتغلبوا على قوته »

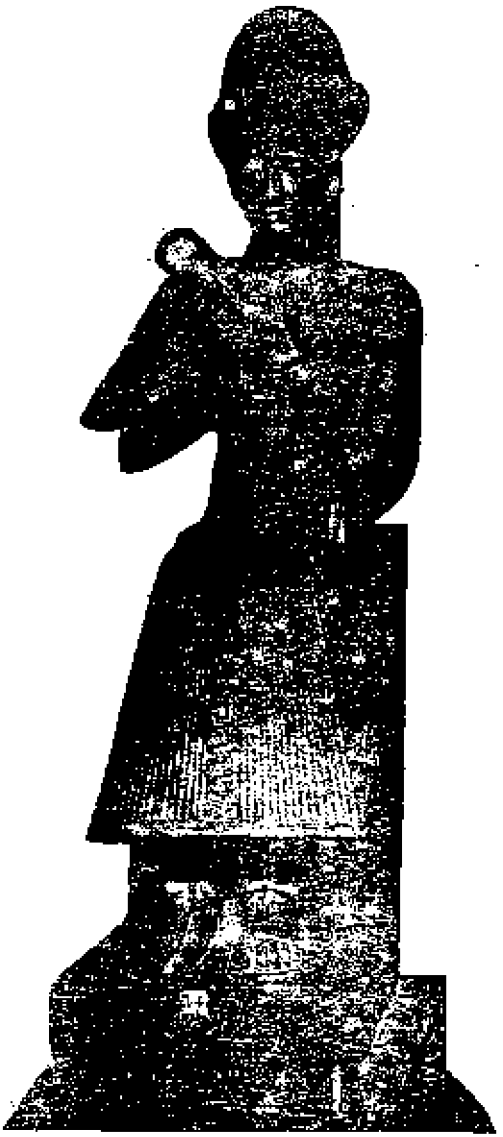

(رقم ٩) رمسيس الثاني وهو شاب وبجانبه ابنته بحجم صغير
والأصل بمتحف تورينو بإيطاليا

« الطبيعة في شيء ، وأراد اسكندر ذو القرنين (رسم رقم ٨) أكبر ملوك الأرض في عهده »
« والمعبود الأعلى في مدينة ممفيس معرفة منابع النيل ، فأرسل بعثة في أواخر أيثوبيا »
« وهناك عاقتها حرارة الجو الملتهب . وذهب سيزوستريس (رمسيس الثاني) »
« رسم (رقم ٩) الى الغرب والى أقاصي الدنيا تجر الملوك عربته ، وكان في استطاعته أن يشرب »
« من منابع أنهاركم (كارون والپو) ، فإن ذلك أسهل عليه من أن يشرب من منابع النيل »
« ووصل قمبيز الأحمق الى الشرق بين الذين يعبرون طويلاً ، ولما غابت عنه المؤونة ، »
« ذبح رجاله والتهمهم بدون أن يعرف منابع النيل . ولم يستطع أحد في القصص والروايات »
« الوصول إلى منبعه ، ولم تدخر الأمم وسعاً في السعي إلى اكتشاف منابع « النيل . »
« وإني أدرك حكمة الآلهة الذين أرادوا صيانة مجراك أيها النيل ، من أن يستطيع أحد »
« الوصول الى منتهاك البعيد المدى ، فانك تقوم وسط قطب العالم ناصباً شرانقك أمام »
« برج السرطان المضطرب فتسري الى الجهات ، وتراك فيها الشعوب القاصية والدانية ، »
« وتبحث القاصية عن منبعك ، ثم تعود مقهورة الى حقول إثيوبيا المرتوية من مياهك »
« الغربية ، ويجهل العالم منبعك ، وقد أعطيت وحدك أيها النيل حق الامتياز لتسير من »
« قطب لآخر ، يبحث الناس في بداية مجراك ونهايتك لتتسع مياهك ثم تضيق لتحيط »
« مروي » ، وسكانها قوم سود الوجوه يفتخرون بنباتهم المعلوءة بخشب الأبنوس »
« الكثيرة الأوراق ، ولا يوجد هناك ظل يخفف حدة المطر ، ما دام برج الأسد »
« يرسل حرارته على خط مستو على وجه الأرض ، فتمر في منطقة الشمس بدون أن »
« تضيع شيئاً من مائك . تدعو قريباً طبقتك مياهك المقسمة الى حدود قبائل العرب »
« وأراضي « فيلة » التي هي منتهى حدود مملكتك المصرية ، وعند ميلك تخطط »
« الصحراء ممر التجارة بين البحر الأحمر وجبال ليبيا . أرتنا لجج النيل عند ما تمتد »
« فيلاقي مجراها في مسيره عراقيل وشلالات سريعة تعترضها بعض الصخور في الصحراء »
« ولكن لم يوقف مياهك شيء فحينئذ تلقى الزبد حتى الكواكب ، وكل شيء يخشى »
« اضطراب أمواجك ، ويتذمر الجبل تحت بياضها احتراماً لانك النهر الذي لا يقهر ، وبعد »
« ذلك تظهر الأرض المقدسة والصحراء المروية بشرايين النيل لأنها تبتسم بالفيضان في »
« أوائله عقب أن أغلقت الطبيعة أبواب المجاري بمياهك المنتشرة عن دخول بلاد ليبيا »
« بحاجز الجبال في هذا الوادي العميق الذي فيه يجد مجراك نظامه المألوف ، ويتقدم »
« بهدوء وسكينة ، ويبتدىء من مدينة ممفيس التي تسلم إليك حقولها وتفتح أبواب »
« السهول والوديان ، ولا يوجد على شوانئك حواجز تعتبر حداً لفيضانك » [يتبع]